أَثَرُ التَّطَوُّرِ الدَّلالِيِّ في تَأْوِيلِ النَّصِّ القُرآنِيِّ

احمد حسين خشان

ديوان الوقف الشيعي - بغداد

فحوى البحث

يسير البحث، في سياق عنوانه الذي أرصده السيد الباحث، ويخلص الى أن: الدلالة في النص القرآني هو مجموع العلامات والرموز والإشارات. فالمصطلح العلمي للدلالة الحديثة، لا يخرج عن هذه المعاني الا بقدر ما يفيد من تحليل عميق في الموقف الدلالي على صعيد بنية التركيب السطحية، وملاحظة ما تخفيه من بنية عميقة تنطوي عليها. ويمثل النص القرآني ذروة هذا التمثيل في عموم النص العربي قاطبة. لذا دعت الحاجة (برأي السيد الباحث)، الى التأويل تبعاً للتطور الدلالي في العربية على مر العصور، في ممارسة موضوعية جديدة، لها القدرة على الوصول الى فهم النص على نحو وافٍ.

تعد الدلالة من أهم الأسس التي اعتمدها المفسرون لفهم معاني النص القرآني، فهم لم يقفوا موقفًا واحدًا من الدلالة اللغوية للكلمة، ولم يتوجهوا إلى نمط واحد من وجوه التأويل المحتملة، بل نجدهم يتفقون أحيانًا، ويختلفون أحيانًا أخرى؛ من هنا تظهر أهمية الدلالة، وأثر تطورها في تأويل النص.

اللغة ظاهرة اجتماعية، لأنها تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيانها منه، وهي تتطور بتطوره، فترقى برقيه، وتنحط بانحطاطه[1]، وبما أن اللغة ظاهرة اجتماعية، فإنها كالظواهر الاجتماعية الأخرى، عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها: أصواتها، قواعدها، متنها، ودلالاتها، وهذا التطور يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة واضحة المعالم، ولا يستطيع أحد أن يوقف عملها أو يغير نتائجها، وسرعة التغير ونتائجه تختلف من زمن لآخر، ومن جانب لآخر من جوانب اللغة[2]، والتطور الدلالي هو أحد جوانب التطور اللغوي، وميدانه الكلمات ومعانيها، ومعاني الكلمات لا تستقر على حال، بل هي في تغير مستمر لا يتوقف، ومطالعة معاجم العربية تبرهن على هذا التطور، وتبين أن معاني الكلمات متغيرة من عصر إلى عصر، هذا ما انتهت إليه الدراسات اللغوية الحديثة.

وللتطور الدلالي عوامل مختلفة تؤدي إليه، كما أن له مظاهر معينة يسلكها هذا التطور، وهو ما يمكن الوقوف عليه في هذه الدراسة، وبيان أثر التطور الدلالي في تأويل النص القرآني.

الدلالة في اللغة:

مصدر الفعل دلَّ يدلُّ دلالةً، وقد ذكر علماء اللغة في لفظ (دلالة) ثلاث لغات[3]: دَلالة ودِلالة ودُلالة بفتح

(١) ينظر: التطور اللغوي -مظاهره وعلله وقوانينه-، رمضان عبد التواب، القاهرة، ١٩٨٣م، ٥.

(٢) ينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة كمال بشر، دار الطباعة القومية، القاهرة، ١٩٦٢م، ١٥٦.

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١ -٦)، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم

الدال وكسرها وضمها، والفتح أعلى، ويقال أيضا: (دلولة) بالضم وقلب الألف واوا، وقد جاء الفعل) دلّ (لمعان عدة، منها: أن يكون بمعنى هدى، وأرشد، ويحصر ابن منظور المعنى الحقيقي للجذر في دلالة الإرشاد أو العلم بالطريق الذي يدل الناس ويهديهم، بقوله: ((والدَّليل ما يُستَدَلُّ به، والدَّليل الدَّالُّ، وقد دَلَّه على الطريق يَدُلُّه دَلالة))[٤]، والمعنى نفسه يشير إليه الفيروزآبادي للجذر (دلل)، فيقول: ((والدالة: ما تدل به على حميمك، ودله عليه دلالة... سدده إليه))[٥]، وقد دلَّت تَدِلُّ، والدَّلُّ كالهَدْيِ، ومنه قول الرسول ﷺ: ((إن الدال على الخير كفاعله))[٦]، ويترتب على هذا التصورِ المعجمي توافُرُ عناصر الهَدْي والإرشاد والتسديد؛ أي: توافر مرشِد، ومرشَد، ووسيلة إرشاد، وأمر مرشَد إليه، وحين يتحقق الإرشاد تحصل الدلالة.

والدلالة بهذا المعنى لا تختصُّ باللغة فقط، بل هي عامة في كل ما يوصل إلى المدلول، ((ومتى دل الشيءُ على معنى،

(٤) ينظر: لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ، ١١/ ٢٤٨ -٢٤٩، مادة (دلل).

(٥) ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ)، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥م، ١٠٠٠، مادة (دلل).

(٦) ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط -عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠١ م، ٣٧/ ٤٤؛ الجامع الكبير-سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨ م، ٤/ ٣٣٨؛ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، دار الصميعي، الرياض/ ط١، ١٩٩٤ م، ٦/ ١٨٦.

فقد أخبر عنه وإن كان صامتًا، وأشار إليه وإن كان ساكتًا))[٧]، وينبغي هنا التفرقة بين (الدلالة) و (المعنى)؛ فالدلالة هي مجموعُ المعاني اللغوية التي يتضمنها اللفظ، وهي وسيلةُ الوصول إلى المعنى، فبها يُومَأ إلى مفهوم اللفظِ؛ لذا تُعَد الدلالة أوسعَ مِن المعنى وأشمل.

الدلالة في الاصطلاح العربي:

غالبًا ما تتوافر العلاقةُ بين المدلولينِ اللغوي والاصطلاحيِّ؛ إذ يرتكز الثاني على الأول ويستمدُّ منه مقوماته؛ لأن الوضعَ اللغويَّ الذي تصالَح عليه أهل اللغة قديمًا، يُلقي بظلالِه ومعناه الدلالي على المعنى العِلمي؛ فالمصطلحُ يتشكَّل مع نموِّ الاهتمام في أبواب العلم وبالاحتكاكِ الثقافي ((لأن اللغة إنما هي وضع الألفاظ في دلالتها على المعاني: أي وضع الأسماء على المسميات لتكون منبئة عنها عند إطلاق اللفظ))[٨].

عرف علماء المنطق (الدلالة)؛ بأنها كون اللفظ متى أطلق فُهِم منه المعنى، مثل دلالة (ضرب (على الضرب[٩]، وارتبطت دلالة لفظ (الدلالة) في الاصطلاح بدلالته في اللغة، إذ انتقلت اللفظة من معنى الدلالة على الطريق، وهو معنى حسي، إلى معنى الدلالة على معاني الألفاظ، وهو معنى عقلي مجرد[١٠].

التطور في اللغة أمر حتمي يشبه أن يكون وجهًا من وجوه تطور الحياة نفسها، وهو في معناه البسيط؛ التغيير الذي يطرأ على اللغة سواء في أصواتها

(٧) البيان والتبيين (١ -٣)، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي، أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، ١/ ٨٦.

(٨) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠ هـ، ٣٨.

(٩) ينظر: علم المنطق القديم والحديث، محمد عبد الرحمن عبد الوصيف، مطبعة المعاهد، مصر، ٢١.

(١٠) ينظر: علم الدلالة -دراسة نظرية وتطبيقية-، فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ١٢.

أو دلالة مفرداتها، أو في الزيادة التي تكتسبها اللغة أو النقصان الذي يصيبها، وذلك كله نتيجة عوامل مختلفة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة الأمم في كافة مجالاتها، وليس من شك أن التطور اللغوي مرتبط بسنن التطور العام في حياة الإنسان، فاللغة ظاهرة اجتماعية تتأثر بكل ما يعتري الإنسان من أحوال عامة يشترك فيها جميع أفراد الأمة[١١]، وإذا كان معنى (التطور) في اللغة هو ما عاكس الجمود والسكون، والتحول إلى الأفضل، فإن التركيب اللغوي (التطور الدلالي) يعني: ((تغيير معاني الكلمات، وإطلاق لفظ (التطور) على هذه الحالة؛ لأنه انتقال بالكلمة من طور إلى طور))[١٢]، ويمثل التطور الدلالي ظاهرة شائعة في جميع اللغات، فقد أكد الدارسون هذه الحقيقة، إذ يشبهون اللغة بالكائن الحي الذي ينمو ويتطور[١٣].

عكف اللغويون العرب على دراسة قضايا اللفظ والمعنى وقيمتها الدلالية؛ ودفعوا بجهودهم اللغوية خدمة للخطاب التفسيري للنص القرآني شرحًا وتبيانًا[١٤]، واقتصر اهتمام اللغويين في دراسة الدلالة على الناحية الاشتقاقية للألفاظ، كأن تقارن الكلمة بنظائرها في الصورة والمعنى حتى يتسنى إرجاعها إلى أصل معين[١٥]، وأرى أن الدراسات الدلالية لدى اللغويين العرب قد اتجهت باتجاهين هما:

- الدراسة النظرية التي تناولت العلاقات الدلالية بين المفردات، والبحث في الترادف والأضداد والمشترك اللفظي وما شابه ذلك

(١١) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم – دراسة دلالية مقارنة–، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥م، ٤٥.

(١٢) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، (د. ت)، ٢٠٧.

(١٣) ينظر: (م. ن)، ٣٢.

(١٤) ينظر: المعاجم العربية -مدارسها ومناهجها -، عبد الحميد محمد أبو سكين، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٨١م، ١٧ -٢٦.

(١٥) ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٨٤م، ٧.

((دون ترتيب أو تنظيم))[١٦].

- الإجراءات التطبيقية التي تتمثل بالجهود المعجمية التي بدأت بالرسائل اللغوية في غريب القرآن والحديث، وفي التفسير اللغوي لألفاظها، كتب الحيوان والنبات واللغات واللهجات، وكتب الدخيل والمعرب والنوادر، ثم تطورت هذه الجهود وصولًا إلى وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ) لمعجمه (العين)، وتتابع التأليف بعد ذلك في معاجم لفظية ومعنوية[١٧].

يمثل النص القرآني ظاهرة لغوية فريدة، تتمثل في ((لغة اجتماعية ذات طابع دلالي خاص))[١٨]، تتطلب دائمًا وجود قدرة على تحليل بنيته اللغوية والكشف عن معانيه المخبوءة، ولا يتحقق ذلك إلا بالإحاطة بالدلالة المناسبة أو المقنعة في أقل تقدير لألفاظ النص القرآني، وكانت الحاجة إلى معرفة لغة القرآن وغريبه سببًا في بحوث لغوية عن المعنى والدلالة[١٩].

أورَد النص القرآني صيغة (دلّ) بمشتقاتها في ثمانية مواضع[٢٠]، تشترك في إبراز مفهوم الصيغة، وتعني الإشارةَ إلى الشيء أو الذات، ويترتب على ذلك وجودُ طرَفين: طرَفٍ دالٍّ، وطرف مدلول عليه.

الدلالة الوضعية اللفظية هي المقصود بها عند الأصوليين، فالشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) يورد في كتاب

(١٦) المعاجم العربية -موضوعات وألفاظًا-، فوزي يوسف الهابط، الولاء للطبع والتوزيع، مصر، ط١، ١٩٩٢م، ٥١.

(١٧) ينظر: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، محمد أحمد أبو الفرج، دار النهضة العربية، القاهرة، (د. ط)، ١٩٦٦م، ٣٢ وما بعدها؛ البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، بيروت، ط٨، ٢٠٠٣م، ١٧٥.

(١٨) تطور البحث الدلالي -دراسة تطبيقية في القرآن الكريم-، محمد حسين الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، ٤٧.

(١٩) ينظر: دراسات في علم اللغة (١ -٢)، كمال بشر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م، ١٤٤.

(٢٠) ينظر: الأعراف: الآية ٢٢، طه: الآيتان ٤٠، ١٢٠، القصص: الآية ١٢، الفرقان: الآية ٤٥، سبأ: الآيتان ٧، ١٤، الصف: الآية ١٠.

التعريفات كلامًا جامعًا عن الدلالة في حقلها الأصولي فيقول: ((الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص، وإشارة النص، واقتضاء النص))[٢١]، أما ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) فقد ذكر الدلالة الوضعية وطريقة النظر فيها في معرض حديثه عن أصول علم الفقه في مقدمته، قائلًا: ((يتعين النظر في دلالة الألفاظ، وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف عل معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة.. . ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام.. . فكانت كلها من قواعد هذا الفن، ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية))[٢٢]، ويورد الشريف الجرجاني تعريفًا آخر للدلالة الوضعية فيه بسط وتقسيم ((فالدلالة الوضعية: هي كون اللفظ بحيث متى أطلق أو تخيل فهم منه معناه، للعلم بوضعه، وهي المنقسمة إلى المطابقة والتضمن والالتزام، لأن اللفظ الدال بالوضع يدل على تمام ما وضع له بالمطابقة، وعلى جزئه بالتضمن، وعلى ما يلزمه في الذهن بالالتزام كالإنسان فإنه يدل على تمام الحيوان الناطق بالمطابقة، وعلى جزئه بالتضمن، وعلى قابل العلم بالالتزام))[٢٣]، وتفصيل تقسيم الدلالة عند الأصوليين على ما يأتي[٢٤]:

١. **دلالة المطابقة**: وهي أن اللفظ إذا استعمل في كامل معناه الموضوع له،

(٢١) كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني، ١٠٤.

(٢٢) المقدمة، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨ م، ٥٧٤ – ٥٧٥.

(٢٣) كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣م، ١٠٥.

(٢٤) ينظر: المحصول، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين (ت ٦٠٦ هـ)، تحقيق: طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٧م، ٢١٩.

فدلالته عليه مطابقة، كدلالة قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥] على إباحة مال بمال.

٢. **دلالة التضمين**: وهي أن يدل اللفظ على جزء ما وُضِع له، كأن يستعمل لفظ البيع للدلالة على الإيجاب فقط.

٣. **دلالة إلزامية**: وهي دلالة اللفظ على لازم عقلي أو عرفي لمعناه، كدلالة قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾[سورة الحشر: ٨] على زوال ملك هؤلاء المهاجرين الذين أخرجهم الكفار من مكة عما تركوه فيها من أموال؛ لأن كلمة (الفقير) تدل مطابقة على مَنْ لا يملك شيئًا، فإطلاق كلمة (فقراء) على المهاجرين يستلزم عقلًا زوال ملكيتهم عن أموالهم.

إن الدلالة اللفظية الوضعية عند الرازي هي دلالة المطابقة فقط، أما دلالتا التضمن والالتزام فعقليتان. غير أن جمهور الأصوليين من الأحناف والشافعية يجمعون على التقسيمات الثلاثة المشار إليها (المطابقة والتضمن والالتزام) جميعها تندرج تحت الدلالة اللفظية الوضعية.

إن هذه الأقسام الثلاثة تُعد أساساً تقوم عليه الدلالات بمعناها الاصطلاحي ذلك أن الدلالات التي يتجه إليها المفسرون باعتبار أنها دلالات لأخذ الأحكام من النّصوص أو فهم المعنى المراد في عمومه ترتكز على هذا التقسيم وتنبني عليه، ونتيجة لوجود هذه الأقسام الثلاثة شرع المفسرون بتأويل الدلالة اللغوية بأكثر من معنى، فالمفردات اللغوية ذات دلالات مختلفة، وتكون بعض تلك الدَّلالات متغايرة ومُتباينة ((التغيير الدلالي للمفردات يعد من الحقائق المقررة لدى علماء اللغة المحدثين))[٢٥]، وبناء على ذلك الاختلاف في الدَّلالات اللغوية يختلف تفسير النصّ القرآني ((إن كثيرًا من كتب التفسير المتداولة، وبالأخص

(٢٥) علم الدلالة، فريد عوض حيدر (م. س)، ٧٠.

كتب التفسير بالمأثور، ينقل أصحابها في تفسير الآية الواحدة أقوالًا متعددة ومختلفة))[٢٦]، وتَختلِف معه الأحكام المُستنبَطة منه، وتعد الدلالة اللغوية من أهم الأسس التي اعتمدها المفسرون لفهم معاني النص القرآني فاختلفت الخطابات التفسيرية في موضوع الدلالة اللغوية، وفي فهم غير المنطوق من السياق العام للكلام، وكان من أثر ذلك الاختلاف والتعدد في وجوه التأويل المحتملة[٢٧].

وتعريفُ الدلالة لا يخرج عن جدلية العلاقة بين الدال والمدلول بوجه عام، فلا بد للدلالة من تحقُّق عنصرين: أحدهما الدال، والثاني المدلول[٢٨]؛ نحو الطَّرْق على الباب؛ فإنه دال على وجود شخص (مدلول)، وهذه الصفة التي حصلت للطَّرق تسمَّى (دلالة) [٢٩].

فالدلالة إذًا تقومُ على العلاقة بين الدال والمدلول من جهة[٣٠]، وبينهما وبين المتلقي من جهة أخرى، فعِلمه بالدال يستدعي انتقالَ ذهنه لإدراك المدلول[٣١].

اتسع استعمال مصطلح الدلالة في التعبير عن المعنى المستنبط من النصوص والألفاظ، وكان ذلك بالخصوص في كتب الأصوليين، لأن استنباط الأحكام الفقهية من النصوص الشرعية يتوقف على معرفة الفقيه لدلالة الألفاظ على معانيها لذلك يهتم الأصوليون ببحث الدلالة

(٢٦) اختلاف المفسرين -أسبابه وآثاره -، سعود بن عبد الله الفنيسان، دار اشبيليا، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، ٧ -٨.

(٢٧) ينظر: معالم الفلسفة الإسلامية، محمد جواد مغنية، مكتبة الهلال، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م، ١٩٨.

(٢٨) ينظر: علم الدلالة العربي، فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٩٦م، ١١ وما بعدها، وكذلك التطور الدلالي، مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ٧.

(٢٩) ينظر: المنطق، محمد رضا المظفر، (ت ١٣٨٣هـ)، دار سرور، قم، ط١٠، ١٤٢٤هـ، ٢٩.

(٣٠) ينظر: تطور البحث الدلالي، محمد حسين الصغير (م. س)، ٩.

(٣١) ينظر: دراسات في علم اللغة (١ -٢)، كمال محمد بشر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م، ٢/ ١٥٩.

الوضعية اللفظية دون غيرها من أنواع الدلالات[٣٢]، فبدأ البحث في مشكل الآيات القرآنية وإعجازها وتفسير غريبها واستخراج الأحكام الشرعية منها، وقد شغلت الصلة بين الألفاظ والمعاني[٣٣] العلماء المسلمين، وظهر ذلك في المدونات الأولى في الحضارة الإسلامية، فمصنفات الوجوه والنظائر في القرآن كانت الحاضن الأول للبحث الدلالي المتعدد المعنى في الألفاظ، ((وربما تتغير مدلولات كثيرة؛ لأن الشيء الذي تدل عليه، قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه، أو الشئون الاجتماعية المتصلة به))[٣٤]، وشهد القرن الثالث الهجري توجهًا منصبًا حول لغة القرآن، ومعاني مفرداته، وسيرورة ألفاظه، وكان من حصيلة هذه الجهود اللغوية مصنفات متحدة في مظاهرها الدلالية وإن تعددت عنواناتها التي استقطبت الصيغ الآتية: (مجاز القرآن) و (معاني القرآن) و (غريب القرآن)[٣٥]، ومن جهة أخرى خصت كتب الأصوليين قسمًا خاصًا بمباحث الدلالات، إذ كان علماء الفقه والأصوليون من أوائل من احتضنوا الدراسات التي تدور حول الألفاظ ومعانيها[٣٦]، وتحديد المُراد بها.

(٣٢) دروس في علم الأصول، محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ١/ ٨٢ وما بعدها.

(٣٣) ينظر: عبد القاهر الجرجاني -بلاغته ونقده-، أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٣م، ٥ -٢٤.

(٣٤) ينظر: مباحث لغوية، إبراهيم السامرائي، جامعة بغداد، ١٣٩٠ هـ -١٩٧٠م، ٩٢.

(٣٥) ينظر: مجاز القرآن، محمد حسين الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٤م، ١١.

(٣٦) ينظر: المعتمد في أصول الفقه (١ -٢)، أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب المعتزلي البصري (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ، ١/ ٩ وما بعدها؛ اللمع في أصول الفقه، أبو إسحق بن إبراهيم بن علي الشيرازي (ت ٤٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ٣ وما بعدها؛ وينظر: مبادئ الوصول إلى علم الأصول، العلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ)، تحقيق: عبد الحسين البقال، الإعلام الإسلامي، قم، ط٣، ١٤٠٤هـ، ١٢ وما بعدها.

يتعلق البحث في دلالة الألفاظ بالمسار التاريخي للغة (السيرورة)[٣٧]، التي تتمحور حول مفهوم العلاقة باعتبارها الحد الأساس في إنتاج أي نشاط دلالي ((كل حياة تتجاذبها صفتا الصيرورة، مما كان، والسيرورة مما يكون، وفق نظام أسرار الكون، ويجعلها قابلة لكل ما هو جديد بتجديد نفسها على الدوام))[٣٨]، وعلى هذا الأساس فإن مفهوم الدلالة مفهوم مركزي تنتظم حوله المعاني الوظيفية والمعجمية والمقامية (الاجتماعية)[٣٩]، بل يمكن القول إن إنتاج الدلالة لا يستدل عليه بالألفاظ فحسب ((وإنما تتعدد وسائل الدلالة عليه بحيث تشمل الأحداث والمواقف والانطباعات وما يكون من تجريدات ذهنية تحدث عند إدراك المعنى بأي وسيلة))[٤٠]، هو رصد للضوابط الثقافية التي تشتغل كقوانين يتم استنادًا إليها تأويل كل الوقائع.

بناءً على ما تقدم فإن الدلالة ليست معطى جاهزًا يتموضع للطلب بحسب الحاجة، بل هي مظهر من مظاهر التطور الدلالي الثلاثة: تخصيص الدلالة، وتعميم الدلالة، وتغيير مجال استعمال الكلمة ضيقًا واتساعًا، في انتقال المعنى وتعاقبية النص[٤١]، وتلك التعاقبية تمكن كل جيل من الأجيال من تحديد الدلالة النصية ليتجاوز المفاهيم السابقة التي استنفدت معانيها، ويعيد إنتاج دلالات تعاصر واقعه، وتتكفل بحل مشاكله، ولأن الدلالة هي سيرورة مؤدى الألفاظ في حنايا الذهن

(٣٧) ينظر: مجاز القرآن، محمد حسين الصغير (م. س)، ١١.

(٣٨) إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، عبد القادر فيدوح، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م، ٣٠.

(٣٩) ينظر: دراسات في اللغة والأدب، إحسان خضر الديك، دار المستقبل للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢، ١٩٩٦م، ٢٧.

(٤٠) خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ٨٣.

(٤١) ينظر: التطور اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، ١١٤؛ الله والإنسان في القرآن، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: هلال محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ٧١.

العربي وإنتاج المعنى وتحويله من طابعه المادي إلى أشكال مضمونية تدرك ضمن السياقات المتنوعة؛ لذا ارتبط مفهوم الدلالة بالقدرة على إنتاج دلالة ما استنادًا إلى روابط صريحة هي ما يشكل جوهر العلامة وشرط وجودها، ويشير، من جهة ثانية، إلى سيرورة التأويل التي تعد ضمنية داخل أي سيرورة لإنتاج الدلالة.

وصنف اللغويون الدلالة على أنواع[٤٢] هي:

١. الدلالة الصوتية.
٢. الدلالة الصرفية.
٣. الدلالة النحوية.
٤. الدلالة معجمية.
٥. الدلالة الاجتماعية.
٦. الدلالة السياقية.

ولم يكن ثمة فصل في هذا المجال بين البحث في طرق استنباط النص وبين البحث اللغوي المتمثل بالمعرفة اللغوية، بل إن مباحث الدلالة عند اللغويين تأثرت بمباحث الأصوليين ومناهجهم في تقعيد فهم النص القرآني؛ لذا عُدت المعرفة اللغوية من أهم الأدوات التي استعان بها العلماء في فهم النصوص القرآنية، وعن دلالة الكلام الحقيقية أو المجازية في الدرس البلاغي؛ فإن الرأي السائد بين علماء العربية؛ أن اللفظ قد يُستعمل استعمالًا حقيقيًا، وقد يُستعمل استعمالًا مجازيًا ((والحقيقة اللغوية، هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني، وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء أي: نفسه وعينه، فالحقيقة اللفظية إذًا هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة، والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ آخر غيره))[٤٣]، ويرى صبحي الصالح أن هذه الاستعمالات جاءت نتيجة لما

(٤٢) ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ٤٤ وما يليها؛ وكذلك الدلالة اللغوية عند العرب، عبد الكريم مجاهد، دار الضياء للنشر، عمّان -الأردن، ١٩٨٥م، ١٥٧ وما يليها.

(٤٣) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١ -٤)، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧ هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار النهضة، مصر، (د. ت)، ١/ ٨٤.

استجادوه من ألوان التعبير المجازي العقلي واللغوي[٤٤]... فالعقلي الذي علاقته المشابهة، وهو واقع في التركيب، وما يكون أحد طرفيه حقيقيًا دون الآخر كقوله تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [سورة القارعة: ٩]، فاسم الأم (الهاوية) مجاز، أي كما أن الأم كافلة لولدها وملجأ له، كذلك النار للكافرين كافلة ومرجع، ومن المجاز اللغوي إطلاق اسم الكل على الجزء، نحو قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [سورة البقرة: ١٩]؛ أي أناملهم، ونكتة التعبير عنها بالأصابع الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة في الفرار[٤٥]، وفي ذلك تصوير لحالتهم النفسية وما أصابهم من الذعر والهلع وهم يولّون هاربين، ويبقى فهم النص بين ما استجاده العلماء من جهة وبين ما تكشّف عنه النص الذي يرتهن بالقراءة النقدية الواعية لمعطياته، ويبين ذلك أن المجاز ((مظهر للتطور الدلالي في كل لغة من اللغات))[٤٦]، بالإضافة إلى صحة تعبيره ودقة تقديره عن المراد، ويمثل ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) لذلك بتعبيره عن اتحاد الاسم واختلاف المسميات بالعين فيقول: ((كالعين؛ فإنها تطلق على العين الناظرة، وعلى ينبوع الماء، وعلى المطر، وغيره، إلا أن المشتركة تفتقر في الاستعمال إلى قرينة تخصّصها؛ كي لا تكون مبهمة، لأنا إذا قلنا: عين؛ ثم سكتنا، وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم، وإذا قرنّا إليه قرينة تخصه زال ذلك الإبهام؛ بأن نقول: عين حسناء، أو عين نضّاخة، أو ملثّة، أو غير ذلك))[٤٧].

ولما كان النص القرآني متفرداً في

(٤٤) ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ٢٠٠٧م، ٣٢٨-٣٢٩.

(٤٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٢٦٢؛ الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢/ ٦٠.

(٤٦) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس (م. س)، ٩٧.

(٤٧) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (م. س)، ١/ ٥٠.

بنية نصية مغايرة، في الجوانب اللغوية والفنية والأسلوبية، فإنه يمثل الذروة البيانية في الموروث البلاغي عند العرب، ويبتعد عن النمط الجاهلي في ألفاظه ومبانيه، ويستقل بمدلولاته ومعانيه، وليس من أثر فيه من نوازع المكان والزمان، فقد كان المحور الأساس للبحث الدلالي وتطوره عبر العصور، ومن مظاهر التطور الدلالي؛ الاتساع في دلالات الألفاظ التي تغيرت بمرور الزمن، فمنها؛ ما يقع في المجاز بوصفه أحد شقَّي الكلام (الحقيقة والمجاز)، فللمجاز دور بارز في معالجة المسائل التي عَلِقَت بين الفرق والمذاهب الإسلامية واختلفت فيها، ولا سيما الصفات الإلهية، ورؤية الله تعالى، ومشاهد اليوم الآخر، ووصف الجنة والنار، ومن أمثلة المجاز المرسل في النص القرآني، قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [سورة الفاتحة: ٦]، وقد اختلفت الخطابات في التفسير الموروث، في المعنى الذي استعير له (الصراط)، فقيل: تعني (القرآن)[٤٨]؛ لأنه هو الهادي لدين الله -عز وجل-، والموصِلُ إلى الطريق الصحيح، وقيل: يعني (الإسلام)[٤٩]، ومثل ذلك لفظة (الصلاة)، فهي الدعاء تارة، وأخرى العبادة المعروفة في الإسلام، ومن مظاهر التطور الدلالي في النص القرآني ما يتعلق بالتشبيه، ففي قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ ﴾[سورة النور: ٣٥]، وردت (مشكاة) في تشبيه النور الإلهي، وهو التشبيه المقلوب؛ لأن حقيقة نور (المشكاة) هو جزء من النور العام، فهو تشبيه يقرِّب المعنى في أذهان المخاطبين، وتمثيل لنور الله-عز وجل -الذي لا يدانيه شيء بما تدركه الأبصار،

(٤٨) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢ هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ، ١/ ٧٤.

(٤٩) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ، ١/ ١٥.

وهو تشبيه الصورة المجهولة التي لا تُدانى بالصورة المعروفة لدى الناس.

وقد وقع التطور الدلالي في الاستعارة، والكناية، والدلالة الصوتية، والدلالة الاجتماعية، والدلالة الإيحائية، والدلالة الهامشية، مما يضيق به المقام من أمثلة في هذه الدراسة المقتضبة، فلكل ظاهرة من هذه الظواهر أثر في النص القرآني، في تأدية معانيه واتساع دلالاته، وكان لهذا التطور وظائف في ألفاظ النص القرآني، منها: الفنية والعقلية والنفسية، ويحدث هذا التطور اللغوي لأسباب تاريخية، دينية، واجتماعية.

تكمن مهمة التأويل في البحث عن المعنى المخفي للألفاظ، وهو مجالٌ أتاح له البحث عن المعاني الدقيقة للألفاظ، لأن ((المعنى قابل للإنتاج والتأويل))[٥٠]، فهو وسيلة من وسائل الكشف عن مراد المتكلم، ومعرفة ما تعنيه ألفاظه، وذلك لا يتحقق إلاَّ بمراعاة أصول اللغة، فلا يكون إلا بدليل أو قرينة توجب صرف المعنى الظاهر الأصلي إلى غيره، وقد حدث للفظ المجاز تطور دلالي بين توسيع الدلالة وتضييقها، واستخدم بمعان متقاربة لدى علماء العربية وتميل دلالته إلى الخصوص في العلوم العربية[٥١].

فالدلالة التأويلية هي إخراجُ دلالةِ اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية[٥٢]، وقد عُدَّ المجاز المعتمد على القرينة وضعًا تأويليًّا ((الحقيقة في استعمال الكلام في ما وُضِع له، والمجاز عكسها، أي استعمال الكلام في غير ما وُضِع له))[٥٣]، وهو شرح المعنى الثاني، وهو المعنى المستتر التي تشير إليه الصورة الحسية على جهة اللزوم أو التضمن عن طريق الرجوع إلى اللغة أو

(٥٠) مدخل إلى الدلالة الحديثة، عبد المجيد جحفة، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م، ١١.

(٥١) ينظر: علم الدلالة، فريد عوض حيدر (م. س)، ٥٩.

(٥٢) ينظر: دروس في علم الأصول، محمد باقر الصدر (م. س)، ١/ ٧٠.

(٥٣) البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، مصر، ط٣، ١٩٩٤م، ٦٦.

تحكيم القياس العقلي، كما في قوله تعالى: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [سورة الفتح: ١٠]، أو الكشف عن صورة المعنى الأول؛ وهو المعنى الظاهر المكشوف والذي يستتر تحته المعنى المجازي؛ لأن المجاز هو: ((هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقةٍ: مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي، والعلاقة: هي المناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، قد تكون (المشابهة) بين المعنيين، وقد تكون غيرها))[٥٤]، والبلوغ بالمجاز إلى غايته من الفكرة وصولًا إلى التأويل، إذ ((كان التأويل يتصل بالمجاز بشكل عضوي))[٥٥].

بعد شيوع علم الكلام انتشرت مَقالة المجاز والتأويل، وحمل لفظ التأويل من المعاني ما لَم يكن له عصر النبوة ولا الصحابة ((لذلك ركز قدماؤنا كل اهتمامهم حول موضوع الدلالة والاستدلال لتوضيح فكرة المجاز))[٥٦]، وقد وردت في القرآن الكريم ألفاظٌ تَطلَّب السياقُ لدى بعض المفسرين في توجيه معناها بخلاف الظاهر السابق إلى الفهم؛ لأنَّ النص القرآني يَحمل بين ألفاظِه الكثير من الوجوه الدلالية، التي يظهرها التأويل والاستنباط ((إن الآيات القرآنية تضفي على بعض الكلمات دلالات جديدة لم تكن معروفة من قبل))[٥٧]، ويظهر ذلك دور السياق وما له من أثر ملحوظ في بيان دلالة النص القرآني، وقد تشكل الكلمة في السياق العام للنص عند المفسرين لما يؤول إليه المعنى، إذ ((أن معنى

(٥٤) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، تحقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، (د. ت)، ٢٥١.

(٥٥) مداخل جديدة للتفسير، غالب حسن، دار الهادي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ٢٢٦.

(٥٦) إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، عبد القادر فيدوح (م. س)، ٣١.

(٥٧) التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٩٨٥م، ٤٨٩.

(الكلام) لا يتأتى فصله بأية حال من الأحوال عن (السياق) الذي يعرض فيه))[٥٨]، فالجانب اللغوي على قَدْرٍ كبير من الأهمية في العمل التأويلي، إذ ((كانوا في تأويلاتهم يعتمدون على الأساس اللغوي))[٥٩]؛ لأنَّ دليل التأويل لا يتحصل إلا بالبحث في حقائق الاستعمال للألفاظ ((لأن حقيقة المعاني لا تثبت إلا بحقائق الألفاظ، وإذا تحرفت المعاني، فذلك لتزيُّف الألفاظ، فالألفاظ متلاحمة متواشجة متجانسة))[٦٠]؛ للتوصل إلى حكم صحيح، يتجلى في صحة التأويل؛ لذلك لا بُدَّ من نظر المؤول إلى اللفظ والدلالة معًا، وإلى المعنى الكلي الذي يؤديه السياق؛ لأن الأسلوب يغير من مدلول اللفظ، وكذلك إدراك موارد الحقيقة والمجاز، لأن التأويل ((السلفي سجين الاستعمال المجازي))[٦١]، والحذر من الألفاظ المشتركة، بمعرفة دقيقة للاستعمالات اللغوية، وضرورة التمرس باتِّجاهات الفرق الكلامية؛ وتأويلاتهم التي يترتَّبُ عليها الوصول إلى أحكام تخدم منهجهم، -وفي تقديري -أن المجازات في الدرس البلاغي العربي في دراسته للنص القرآني هي مقترحات لمعاني منزاحة، تحاول تقريب الشبه بين ملغزات النص وأشياء معروفة لدى المتلقي، لتتخطى معضلة القراءة الحرفية الظاهرة في رسم النص لمواطن التأويل الخفية في باطنه، والتي لا تتكشف إلا لأصحاب المعرفة من أهل التأويل، فقد جرت العادة على اللجوء إلى المجاز عندما يقصر الفهم عن إدراك معاني النص القرآني، وعليه يجب الوقوف على

(٥٨) علم اللغة -مقدمة للقارئ العربي -، محمود السعران، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م، ٢١٦.

(٥٩) البيان في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م، ١٣٠.

(٦٠) البصائر والذخائر (١ -١٠)، أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (ت ٤٠٠هـ)، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٥/ ٨٩.

(٦١) مداخل جديدة للتفسير، غالب حسن، ٢٢٦.

المعاني الحقيقية للنص، ولا يجوز أن يحمَّل على غير ذلك، وقد كان إدخال المجاز من باب العجز عن إدراك تلك المعاني الحقيقية، فكلما عجز البشر عن إدراك المعنى المراد لقصور في فهمهم لجاءوا إلى المجازات والتأويلات المبنية على الهوى، وكلما استطاعوا تجلية المعنى الحقيقي كلما ابتعدوا عن المجاز أو حتى الحاجة إلى المجاز.

إن الألفاظ في النص القرآني لها معانٍ معروفة، ولها ظلال كثيرة للمعنى، لذا فإن تأويلاتها تتسع في نفوس السامعين، ومنها ما لا يُتاح إلا عن طريق التأمل والاستنباط؛ لمعرفة الألفاظ القرآنية التي تجاوزت دلالاتُها الحدودَ المعجمية، وبناءً على ذلك، لا يمكن الوصول إلى فهم حقيقي للنص القرآني إلا بعد الإلمام بقواعد دَلالة الألفاظ على الأحكام التي تعد من أهم موضوعات علم أصول الفقه وأكثرها دقة، وعليه ((لا يمكن استنباط الأحكام الواردة في القرآن الكريم... إلا بعد فهم المعنى، وهذا الفهم إما أن يكون طريقه عبارة النص أو إشارته أو دلالته أو اقتضاءه))[٦٢]، وتلك الدَّلالة قد تكون مباشِرة، أي يَدُل عليها النصّ بطريقة مباشرة، وقد تكون دَلالة غير مُباشِرة، و تُسمى عندئذ دلالة الإشارة[٦٣]، ويُراد بدلالة الإشارة دلالة اللفظ على معنى غير مقصود، ولكنَّه مُرْتَبِط بالحُكْم الذي سِيق اللفظ لإفادَته، لبيان الفرق بين الحُكْم الثابت بالعبارة والحُكْم الثابت بالإشارة.

يقوم منهج علماء التأويل في استنتاجهم لدلالات الألفاظ على الدلالة اللغوية في سياق الآية، ويعد هذا المنهج مطابقًا لنتائج الدرس اللغوي في العربية، فقد عني علماء

(٦٢) دراسات أصولية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الحفناوي، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، القاهرة، ٢٠٠٢ م، ٢٨٥.

(٦٣) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، (م. س)، ٣/ ٦٤؛ التقرير والتحبير (١ -٣)، شمس الدين محمد المعرف بابن أمير حاج الحنفي (ت ٨٧٩ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ١/ ١١١.

التأويل في عرضهم للدلالة اللغوية بتأويل المعاني أكثر من عنايتهم بالألفاظ والأساليب، وغايتهم من ذلك الوصول إلى دلالات النص القرآني بصورة دقيقة، واستمر الخلاف بينهم في توجيه دلالات النصوص القرآنية التي يدلّ ظاهرها على أكثر من رأي، واعتمد كلّ منهم في إثبات رأيه على الدلالة اللغوية وتأويلاتها، ويلاحظ أن تأويل دلالة الأسماء عند علماء التأويل كان أكثر سعة من الأفعال وحروف المعاني؛ ذلك أنها تدل على الأشياء بذاتها دون أن ترتبط بحدث أو زمن، فلا مقيد لها، وتكتسب الأفعال دلالتها من السياق الذي تأتي فيه أكثر مما في الأسماء وحروف المعاني، وقد يكون للحرف الواحد من حروف المعاني أكثر من معنى (كالواو مثلا والفاء وحتى) ولكنها تتمايز من خلال الدلالات التي تؤديها ويحكم ذلك السياق الذي تأتي فيه[٦٤].

في المجال اللساني الحديث، يبدو أن مفهوم التأويل شديد الارتباط بمجموعة من الدلالات المرافقة لاشتغالاته على اللفظ وتعدد المعنى، وعن شروط وجودها وأشكال تحققها، فالمعطيات الأولية في مجال لغة النص تشير إلى أن الكلمة لا يمكن أن تقف عند حدود معينة لمرجع موضوعي مستقل، فالتأويل يستند إلى مجموع الدلالات المرشحة والإحالات الممكنة في الموقف النقدي، سواء تعلق الأمر بلغة النص أو بالأطر الأخرى للتأويل.

إن مسار التأويل ينفتح على جميع الاحتمالات بوصفه فعلًا حرًا لا يخضع لأية ضوابط أو حدود منهجية، فالسيرورة التأويلية تتطور خارج قوانين انسجام النص أو تماسكه الداخلي، فهو مرتبط بغاية، وهذه الغاية لا قيمة لها إلا بإثباتها داخل هذه السيرورة، فأي تغيير يلحق هذه السيرورة سيؤدي إلى بروز

(٦٤) ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ٤٦-٤٩؛ أثر الدلالة اللغوية في التأويل عند المفسرين، كمال مقابلة، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج/ ٥، ع/ ٣ ب، عمّان، ٢٠٠٩م، ٢٦٣ - ٢٦٤.

علاقات جديدة بدلالات جديدة.

لا يمكن اختزال التأويل في مجال مفهومي ضيق، لأنه ليس ترفًا فكريًا عابرًا، ولا يمكن أن يكون إضافة غير ضرورية لفعل إنتاج الدلالات، إنه على العكس من ذلك حاجة إنسانية مستدامة، من خلاله يتخلص من منظور البعد الواحد، والخطاب التفسيري الأحادي المفروض، والانفلات من وصاية المعنى القبلي.

تعد الحضارة الإسلامية من مخرجات النص القرآني، وبالنظر إلى هذه الطبيعة النصية المحتملة للكثير من الدلالات والمعاني، فإنه قابل لتعدد القراءات في لغته المحفزة للذهن على المداولة والتأويل لفرز ثنائية المعنى؛ المباشر والخفي، والكشف عن الدلالة الحقيقية الغائبة عن الإدراك، فيظهر دور التأويل في الشروع لاقتفاء أثر الاحالات الممكنة، وفي حالة غياب المنهج الموضوعي المتوازن في عملية التأويل، ينتج جراء ذلك دلالات منفلتة لا تقف عند حد معين، ويذهب بعض النقاد أن الإمعان في تناول التأويل للنص المتعالي يعد مغامرة، بوصفه نشاطًا معرفيًا تستند إليه كل العلوم الإنسانية من أجل فهم أفضل للتراث الإنساني قديمه وحديثه، مع الأخذ بنظر الاعتبار الفارق الكبير بين النصين في الجوانب المعرفية والتاريخية والاجتماعية.

نظرية التأويل تقوم على حالة وعي فلسفي تستند إلى اشتغالات التأويل في صورة قراءات بشرية تنطوي على النسبية والجزئية، ويمكن ملاحظة التكييف الإجرائي والمعرفي محدودًا يجري بحسب قبليات القارئ (المُؤوِّل)، وتشكيله المعرفي، ودرجة قربه وبعده العقدي عن النص المُؤوَل؛ ذلك أن القراءة تغيِّر المقروءَ تبعًا لتأويله.

لقد دعت الحاجة إلى وجود علم لتفسير النص القرآني بعد فترة من نزوله؛ لأسباب تتعلق بالأبعاد الغيبية والوصول إلى وعي مقبول بين ما هو غيبي خارج نطاق الفهم، وبين الملموس في معاني اللفظ اللغوي للنص.